31
علماء العرب

الزرنوجي

أبو التربية والتعليم

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

الزرنوجي

أبو التربية والتعليم

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: الزرنوجى
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة - الجزائر
الهاتف/فاكس: 61 89 23 21 213 / 85 64 23 21 213
الهاتف: 32 68 23 21 213 / 16 89 23 21 213
فاكس: 90 64 23 21 213
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-276-9
Dépôt légal : 1696-2006

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

ابن زرنوج

طَوالَ النّهارِ، كانَ الصبيّ «بُرهانُ الدّين»، يتجوّلُ في بلدتَهِ زَرَنُوج (بجمهوريّةِ أوزبكستان الآن) يُودّعُ مَزارِعَها، والصّحراءَ القريبةَ منِها؛ وطُيورَها وحيَوَاناتِهِا، وحارَاتِها، ودُروبَها، في رحلةِ وداعٍ قصيرةٍ، قد لا يعودُ بَعدَها إلى «زَرَنُوج».

وظَلَّ بُرهانُ الدِّينِ في تجولِه إلى ما بعدَ صلاةِ العصرِ، ثم عادَ إلى بيتِه، ليتناولَ طعامَ الغداءِ وحيدًا، وأمُّه وأبُوه وإخوتُه الكبارُ، ينظرُونَ إليه في حُبٍّ وإشفاقٍ، فلسوفَ يسافرُ «بُرهانُ الدِّين» طلبًا للعلْمِ عامّةً، وللفقْهِ الإسلاميِّ الحنفيِّ خاصّةً، ولا يعلمُ أحدٌ منهم متى سيعودُ إليهم، ولا كيفَ سيكونُ مصيرُه في طلبِ العلمِ، من فشلٍ أو نجاحٍ.

وخَلاَ الأبُ بابنِه «برهانِ الدّين»، وقالَ له:

– ادّخرتُ من أجلكَ بعضَ المالِ، ولا أعرفُ متى سأرسلُ لكَ مالاً آخرَ، ولا كمْ سأرسلُ إليكَ منه يا بُرهانَ الدِّين، فالأرضُ التي نَزرعُها قليلةُ المساحةِ، تُخصِبُ حينًا، وتُجدِبُ حينًا آخرَ.

فقالَ لهُ برهانُ الدِّين بإشفاقٍ:

– لا تحملْ همًّا يا أبي، فلسوفَ يرزقُني اللّه، بما حفظتُه من القرآنِ الكريمِ، والحديثِ الشّريفِ، ولسوفَ أنالُ جانبًا من مالِ الزّكاةِ، الذي يُعطَى لطلاّبِ العلمِ، والمغتربينَ من أبناءِ السّبيلِ، وسأجدُ مسكنًا، وطعامًا، وثيابًا، بفضلِ الأساتذةِ من العُلماءِ في المسجدِ الجامعِ، بخُوقند.

فقالَ لهُ أبُوه مبتسمًا:

– أرحتَ قلبي يا بُرهانَ الدِّين، ولن يُخَيِّبَ اللّه لكَ رجاءً، ما دامَ قلبُكَ عامرًا بالأملِ، وعقلُكَ مشتاقًا إلى العلمِ. ولولاَ استعدادُكَ للعلمِ، ورغبَتُكَ المُلحّةُ فيه، لأبقيْتك معِي، تعيشُ حياتَنا بخيرِها وشرِّها، وخِصبِها وجدْبِها، باركَ اللّه فيكَ يا برهانَ الدِّين.

وصحبَ الأبُ وأبناؤُه «برهانَ الدِّين» إلى المكتنِ الذي ستغادرُ منه القافلةُ بلدةَ «زرنوج» في طريقِها إلى «خوقند». وصافَحَ برهانُ الدِّينِ أباه وإخوتَه، وعانَقَهم، وركِبَ بغلةً عليها متاعٌ قَليلٌ. وغادرتِ القافلةُ بلدةَ «زرنوج»، و«برهانُ الدِّين» ينظرُ خلفَه، مودِّعًا أباه وإخوتَه، ومَراعِيَ زرنُوج وبيوتَها، حتّى غابتْ عنهُ المشاهدُ وراءَ الأفُقِ، وكانتِ الشّمسُ تغربُ، وراءَ سُحُبٍ خَريفيّةٍ، تاركةً وراءَها سحبًا بيضاء خضّبتها (لوّنتها) بألوانِ الشّفَقِ.

مرحبا بك

عَصرَ اليومِ التّالي، كانتِ القافلةُ قد وصلَت ببرهانَ الدِّين إلى مناخِ القوافلِ، خارجَ «خُوقَنْد» فانفصَلَ «بُرهانُ الدِّين» ببَغلتِه، يَسألُ النّاسَ عن سوقِ «خُوقند» حتّى اهتَدى إليه، وعَن المسجدِ الجامعِ لخُوقند، فأشارَ لهُ النّاسُ إليه.

وربطَ برهانُ الدّين بغلتَه، بحلقةٍ في سورِ المسجدِ، وتركَها آمنًا، بينَ بغالٍ أُخرى وخُيول، وخَلعَ حذاءَه، وعبرَ بابَ المسجدِ، وتلفّتَ حولَه يبحثُ عن خادمِ المسجدِ، حتّى رآهُ ينظرُ نحوَه، فسأله عن العالمِ الشّيخِ الفقيهِ «المرغياني»، فأشارَ خادمُ المسجدِ إليه. ونظرَ «برهانُ الدّين» حيثُ أشارَ، فرأى الشيخَ المرغياني، جالسًا وسْطَ حلقةٍ، علَى مقعدٍ وطيءٍ (منخفضٍ) يشرحُ لتلاميذهِ درسًا مِن دروسِ الفقهِ الحنفيّ، وشعَرَ «برهانُ الدّين» بالرّاحةِ، حِينَ نظرَ إلى وجْهِ «المرغياني». كان وَجهُه بشوشًا وودُودًا، يشِي بأصلٍ هُوَ خَليطٌ مِن الدمِ التّركيّ والعربيِّ، ومَشَى برهانُ الدّين، حتّى جلسَ في طرَفِ حلقةِ العلمِ المحيطةِ بالمرغياني، رَمَقَه (نَظَرَ إليه) المرغياني. وابتسمَ له، وكأنّه يقولُ له: «مرحبًا بك في خوقند».

كيف عرفت؟

انتهَى دَرسُ المرغياني، وقَد قارَبَتِ الشّمسُ على المغيب. وبدأتْ حلقةُ طُلاّبِ العلمِ، تنفضُّ مِن حَولِ الشّيخِ، فأشارَ

المرغياني إلى بُرهان الدّين بيدهِ، فنهضَ برهانُ الدّين إليهِ، وجلسَ بينَ يديْه، قائلاً:

- سلامُ اللّه عليْك أيُّها الشّيخُ الجليلُ.

وردّ الشّيخُ تحيّتَهُ بأحسنَ منِها، وقالَ لبرهانِ الدّين:

- أأنتَ قادمٌ من «زَرْنُوج»؟

فدَهِشَ «برهانُ الدّين»، وقالَ للشّيخ:

- نعم. كيفَ عرفتَ يا سيّدي؟

فابتسَم الشّيخُ، وقالَ لهُ:

قَبلَ قليلٍ، وصلتْ قافلةٌ قادمةٌ من زَرْنوج. فقلتُ لنفسِي لا بُدَّ أنَّك جئِتَ من زَرنوج.

ثم قالَ لهُ الشّيخُ مبتسمًا:

- وأليْسَ اسمُكَ «برهان الدّين»؟

فقال لهُ برهانُ الدّين:

- بلَى يا سيّدي، ومَعي رسالةٌ مِن..

فقاطَعَهُ الشّيخُ قائلاً بوُدّ:

– مِن تلميذِنا إمامِ مسجدِ زرنُوج. فقد كتبَ إليَّ مِن قبل، وحدّثني عنكَ، وأثنَى (مدح) على حفظِك، وفهمِك وذكائِك. أعطِني الرسالةَ يا بُرهانَ الدّين.

وأخذَ المرغيانيّ الرسالةَ، لكنّه لم يفضّ (يزيل) خاتمَها، فقد ارتفعَ صوتُ المؤذّنِ يؤذّنُ لصلاةِ المغرب. عندئذ نهضَ الشّيخُ المرغيانيّ، وتحرّك نحوَ المحراب، وجلسَ ناظرًا إلى المحراب، ينتظرُ أن يفرغَ المؤذّنُ من أذانه، ليؤمَّ النّاسَ في الصّلاة.

أنتَ ضيفي

انتهتِ الصّلاةُ، وراحَ الشّيخُ المرغيانيّ يصافحُ بعضَ المصلّين، ثم التفتَ إلى بُرهان الدّين، فاقتربَ منه، وقالَ لهُ الشّيخُ المرغيانيّ:

– أنتَ اللّيلةَ ضَيفي، إلى أن ندبّرَ لكَ بيتًا تَعيشُ فيه، وفراشًا تنامُ عليه، في بيتٍ من بُيوتِ طُلّابِ العلمِ بخُوقند. ولا تحملْ همًّا مِن هُمومِ العَيش، فنفقتُكَ جاريةٌ في هذهِ المدينة. وادّخرْ للزّمنِ ما أعطاهُ لكَ أهلُكَ من مالٍ. وأفرغْ قَلبَكَ كُلَّه، وعقلَكَ كلَّه، لطلبِ العلمِ، ولا تَدعْ لَهوَ أهلِ هذهِ المدينةِ، والذّاهبينَ عنها، والقادمينَ

إليها، يَشغَلُكَ عَن طلبِ العلمِ. وذلِكَ هو شَرطِي عَلَيك، فعِدْني يا برهان الدّين.

ووعدَه برهانُ الدّين بالإخلاصِ في طلبِ العلمِ طَوالَ عمرِه. فقالَ لهُ الشَّيخُ المرغيانيُّ:

- قُلْ إنْ شاءَ اللّه يا برهانَ الدّين، فالرّجاءُ من اللّه، والتّوفيقُ مِن عندِه.

فقالَ لهُ برهانُ الدّين:

- إنْ شاءَ اللّه يا شَيخي.

وكان المسجدُ قَد بدأ بأضواءِ المِشْكاوَات والقناديل، وراحَتْ زخارفُه الخطّيّةُ، بآياتِ القرآنِ الكريم، تَلوحُ للعُيونِ، وأعمدَتُه تبدُو رائعةً ومهيبةً، وتوريقاتُ زَخارِفه تُرَى جذّابةً وساحرةً. وكانَ أكثرُ المصلّينَ يغادرونَ المسجدَ، بينَهم طلاّبُ عِلمٍ، ورجالٌ من أهلِ خُوقند، وصِبيةٌ لمّا يبلغُوا بعدُ سِنَّ الرُّشدِ.

اللّيلةُ الأولى

وتَبِعَ «برهانُ الدّين» شيخَه «المرغياني» في طَريقِه إلى بيتِ الشّيخِ، وصَحِبَ معهُ بغلَتَه، حتّى وَصلاَ إلى بيتٍ مُتواضعٍ، لهُ ساحةٌ. وعَبَرَ برهانُ الدين عَتَبَةَ البَيتِ، فرأى حَلقاتٍ متناثرةٍ في سورِه القَصيرِ، فعَقَدَ لِجامَ بغلَته بحلقةٍ منِها، وراحَ يُنزِلُ ما على البغلةِ من متاعٍ، وأسرَعَ خادمٌ بالبَيتِ إلى البَغلةِ، بِطعامِها مِنَ التّبنِ والفولِ، وكَانَ شرابُها من الماءِ بجانبِها في حوْضٍ من الحَجَرِ. وضَحِكَ الشّيخُ المرغياني، وقالَ لبرهانِ الدّين:

- إطعامُ الحيوانِ من أدبِ الدّين يا برهانَ الدّين، فعجِّل به لهُ، قبلَ أن تنالَ أنتَ طَعامَكَ.

وتبعَ برهانُ الدّين شيخَه إلى داخلِ البيتِ، وجلسَا معه في غرفَةِ الضّيافة يتحدّثان تحتَ ضوءِ قنديلٍ عن أحوالِ زرنوجَ، وخوقندَ، وعَن مَدَى حفظِ برهانِ الدّين للقرآنِ الكريم، والحديثِ الشّريفِ، ومعرفتِه بالحِساب، فهو ضروريٌّ لكُلِّ مَن يشتغلُ بالفقهِ، في بابِ المواريثِ، وبابِ الزّكاةِ.

وعادَ الاثنانِ مرّةً أُخرَى إلى المسجدِ الجامعِ بخُوقندَ، وأدّيَا صَلاةَ العَشاءِ، ثمّ عادَا مرّةً أُخرى إلى بيتِ الشّيخِ، وَوَجدَ برهانُ الدّين لنفسهِ في بيتِ الشّيخِ غرفةً هادئةً مُريحةً، بها فِراشٌ وثيرٌ للضّيفِ، فَنَزَعَ عنهُ ثيابَ السَّفرِ، وسرعَانَ ما دخلَ في نومٍ هادِىءٍ سريعٍ، ليستيقظَ سَعيداً، ممتلِىءَ القلبِ بالأَملِ، قبْلَ صلاةِ الفجرِ.

مصانع وبساتين

أذِنَ الشّيخُ المرغيانيّ لبرهانِ الدّينِ أن يتجوَّلَ في «خُوقند»، إثْرَ طعامِ الإفطارِ، ليَرى المدينةَ التي سيعيشُ بها زمنًا، قد يقصُرُ وقد يَطولُ، تاركًا لهُ هو أنْ يدبّر لهُ مَسكَنَهُ الجَديدَ، وما قَد يحتاجُ إليهِ من متاعٍ، وأوراقٍ، وأقلامٍ، مِحبرةٍ. وغادرَ برهانُ الدّين، قُبَيْلَ الضُّحَى، بيتَ شَيخهِ المرغيانيّ.

بهَرتْ مدينةُ «خُوقند» عينَيْ برهانَ الدّينِ، بسُوقِها، ودارِ إمارَتِها، وشَوارعِها، وطُرُقاتِها، وبَساتينِها العامّةِ في الميادينِ، والخاصّةِ أمامَ البيوتِ المُترفَةِ، ووراءَ أسوارِها. كانت مدينة خوقند تَقعُ في مَوضعٍ متوسّطٍ بين مدينتيْ «طِشقَنْد» في الغرب، و«سَمَرقَنْد» في الشّرق، وإلى جنوبِها الشّرقِيّ كانت مدينةُ

فَرغَانَة. وكانتْ «خُوقند» تُنافِسُ، في زمانِ برهانِ الدّين، المدائنَ الكبيرة حولَها، بجمالِها، وآثارِها، وتنظيمِها، وعُلمائِها.

وسارَ برهانُ الدّين على شاطىءِ نَهرِ آمُودَارْيا (نهر سيحون) غربيَّ خُوقَند، وكانَ النّهرُ يُحيطُ بمدينةِ خُوقند من الجنوبِ، والغربِ، وقد نَمَتْ على جانبيْه أشجارٌ سامقةٌ (عاليةٌ)، وصَدَحَت بينَ أفنانِها (أغصانِها) تغاريدُ الطُّيورِ، من بلابلَ وعصافيرَ.

ورأَى برهانُ الدّين رأيَ العينِ، بخُوقَند، مصانعَ الحرفيّينَ للمَنسوجاتِ الحريريّةِ والقطنيّةِ، ومصنعًا للورقِ الذي عَرَفَهُ العربُ عن أهلِ الصّينِ، وقدَّر حينَ رأى ضخامَتَهُ وعَدَدَ العاملينَ به، أنّه يُنافسُ مَصانعَ أُخرى للوَرقِ، كانَ يُسمَعُ عنها في بُخارى، وسمرْقَند، وفَرغَانَة. ورأى سُفُنَ التّجارةِ والصّيدِ، غاديةً ورائحةً في النّهرِ، شمالاً وجنوبًا، تحملُ السِّلَعَ والبضائعَ، والصّيّادينَ، ورأى قواربَ نهريّةً صباحيّةً، تحملُ المُتنزّهينَ.

وكادتْ مَشاهدُ خُوقند تَشْغَلُ بُرهانَ الدّين، كصبيٍّ، عَن لقاءِ شَيخهِ، لَولا أنّه سَمِعَ أصواتَ المؤذّنين، تَدعو النّاسَ إلى صلاةِ

الظُّهرِ، في مساجدَ خُوقَند، فأسرعَ برهانُ الدّين إلى المسجدِ الجامعِ، مُسترشدًا بمِئذَنَتِه المَهيبة، المُمتدّةِ في الفَضاءِ.

بين حلقات العلم

فِي «خُوقَند» استَقرَّ المُقامُ ببرهانِ الدّين، في بيتٍ جميلٍ من غُرفتينِ ورَدهةٍ، تطلُّ شُرفَتُه على الشّاطئِ الغربيِّ لنهرِ آموداريَا. وبينَ الحينِ والحين، كانَ برهانُ الدّين يكتُبُ رسائلَ لذويه (أهله)، يبعَثُ بها مع القوافلِ المارّة بزرنوج، أو مع بريدِ الخيلِ، بينَ مَدائن بلاد مَا وراءَ النّهر، وفي كلِّ يومٍ، كانَ برهانُ الدّينَ يَقضي صَباحَهُ في المُذاكرة لما سَمِعَهُ من دُروسِ شيخه المرغياني، في الفقهِ الحَنَفيّ، وكانَ فقهًا يعتَمدُ على أحكامِ النّصِّ القُرآني أوّلاً، والحَديثِ الموثوق به ثانيًا، ويُحكّمُ العَقلَ وروحَ الدّينِ، فيما لم يردْ به نصٌّ من قرآنٍ أو سُنّةٍ، من أمورَ النّاسِ الجديدة المُستحدثَة، عَبْرَ العُصورِ والبُلدانِ. وعندَ العصرِ كانَ برهانُ الدّين يجلِسُ مع طُلاّب عُلوم اللُّغة، في حلَقةٍ من حلَقاتِ عُلماءِ اللُّغةِ، في النّحو أو الصّرفِ، أو البلاغةِ، بمسجدِ خُوقند الجامعِ.

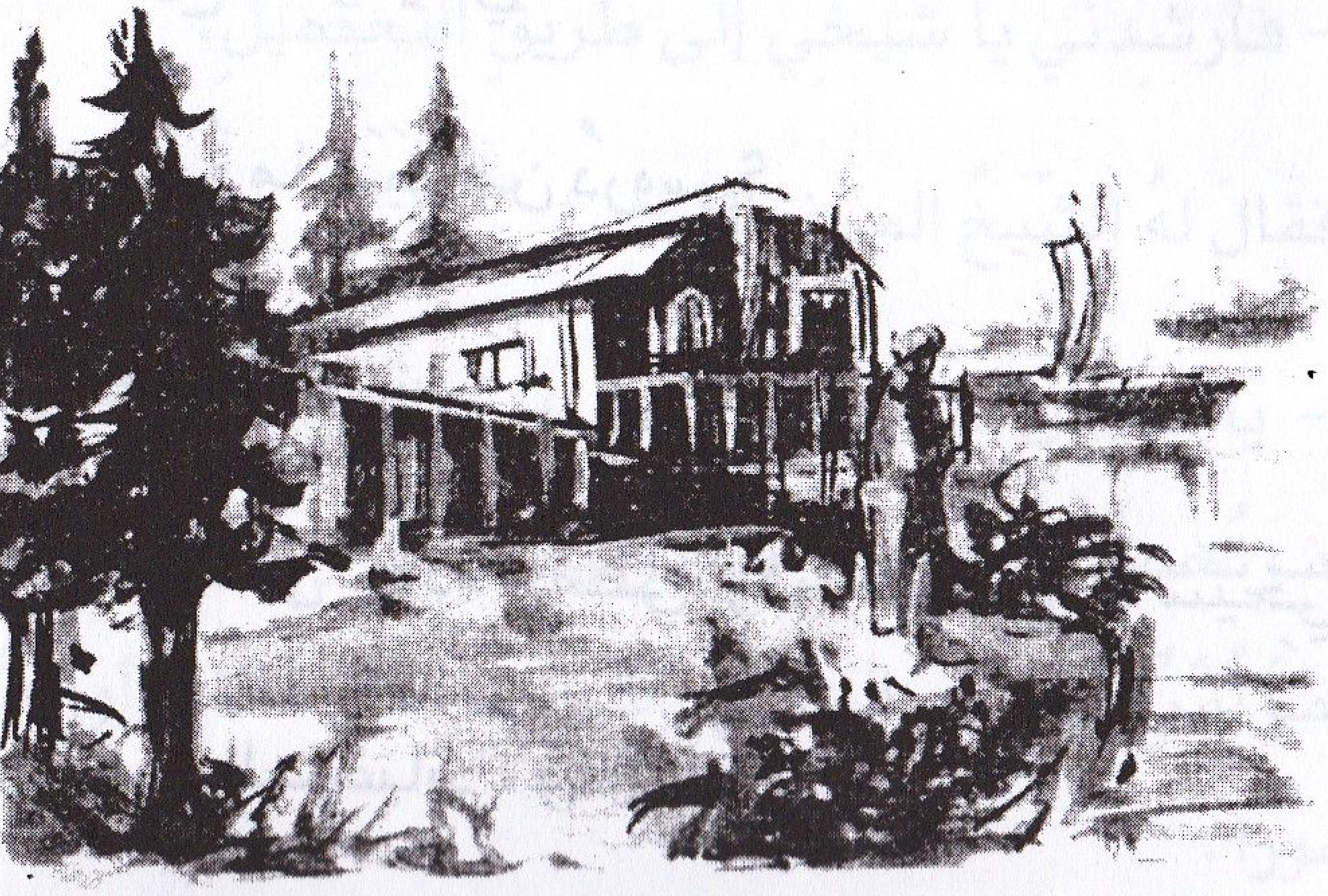

كيف تذاكر دروسك؟

وخلاَ الشّيخُ المرغياني يومًا ببرهانَ الدّين، وهو يزُوره في بيتِه، وسألَه قائلاً:

– كيفَ تُذاكرُ دروسَكَ يا برهانَ الدّين؟

فقالَ له برهانُ الدّين:

- أُذاكِرُ دروسي كلَّ يومٍ، في صباحِ اليومِ التّالي، أوّلاً بأوّل، وجزءًا جزءًا.

فقالَ لهُ الشّيخُ المرِغياني:

- وكيفَ تراجعُ ما سَبَقَ من دُروسٍ؟

فقالَ له برهانُ الدّين:

- إنّني أعتمدُ على جودةِ حِفظي، وقوةِ ذاكرتي، يا شَيخي.

فابتَسمَ الشّيخُ المرغياني، وقالَ لهُ:

- يا بُرهانَ الدّين. العَقلُ يكِلّ (يضعف) من كثْرةِ معارفِ العُلومِ، والحِفْظ يقِلُّ عامًا بعدَ عامٍ، والتّحصيلُ الجُزئيّ المُتَناثِرُ و المُتَراكِمُ (المتجمّع) لمعارِفِ العلمِ، معرفةً بعدَ معرفةٍ، ومعلُومةً بعدَ معلُومةٍ، تَظلُّ منفصلةً، لا يجمَعُها كلٌّ واحدٌ، ولا تَرْتَبِطُ في نَسَقٍ (نظام) شاملٍ يضمُّها. فَماذا أنْتَ صانعٌ بنفسِكَ، وبعلمِكَ، آنئذٍ؟

خذ هذا الكتاب

وفكّر برهانُ الدّين بُرهةً، ثم قالَ لشيخِه المرِغيانيّ:

- فأرشِدْني يا شيخِي إلى طريقِ التَّحصيلِ.

فقالَ لهُ الشّيخُ المرغياني:

- يا برهانَ الدّين. سأعْطيك كِتابًا يعلمُك: كيفَ تَحفَظُ، وكيفَ تُحصِّل، وكيفَ تراجِعُ، وكيفَ تسترجِعُ ما سبقَ من دُروس، وكيفَ تُفَرِّع معارفَ العلمِ من شَجَرتِه، أغصانًا، وأوراقًا، وثمارًا، وزُهورًا.

ونهضَ الشّيخُ المرغياني إلى دَواليب مَكتَبتِه، وسَحَبَ بيدِه، مِن رفٍّ بَعيْنِه بينَ رُفوفِها، كتابًا بعينِه من بينِ كُتُبِها، وأعطاهُ لبرهانَ الدّينِ، قائلاً له، وهو يَعودُ إلى مجلسِه:

- خُذْ هذا الكِتابَ، وانسَخْ لنفسِكَ منهُ نُسخةً، وأعِدْهُ إليَّ لينتفِعَ به سِواك من بعدِك، فلعلَّهُ أن يكونَ النُّسخةَ الوحيدةَ بخُوقند، وقد جلبَه لِي تاجرٌ، سافَرَ إلى المغربِ هو: «الفَضيلةُ لأحوالِ المتعلّمينَ، وأحكامِ المُعَلّمينَ».

الحفظ والفهم

في كلِّ ليلةٍ، كانَ «برهانُ الدّين» ينسخُ بيدِه، وبخطٍّ جَميلٍ، نُسخةً لنفسِه، من كتابِ القابِسيّ، ونسخةً أُخرى من كتابِ «الهِدَاية في الفقه الحنفيّ»، لشيخه المرغياني. وفي كلِّ صباحٍ لم ينقطعْ برهانُ الدّين عن استذكارِ دروسِه، ولا عَنْ سماعِ دُروسٍ جَديدةٍ عصرَ كلِّ يومٍ، من شُيوخِه في الفقهِ وعلومِ اللُّغةِ.

ووعَى «بُرهانُ الدّين» من كتابِ القابسيّ مبادئَ لا بُدّ من اتّباعِها لطالبِ العلمِ، أن يحفظَ كتابًا واحدًا كمصدرٍ ومرجعٍ في أيِّ علمٍ، وأن يدرسَ ما عَداها في ضوءِ ما حفظَهُ من حقائقِ العلمِ، وأن يُقدمَ الفهمَ على الحفظِ، ويتجنّبَ أن يحفظَ دون أن يفهمَ، فالحفظُ يُنسى، والفهمُ يَبْقَى، والقُدرةُ على الفهمِ هي غايةُ كلِّ عِلْمٍ، والطّريقُ إلى أيِّ علمٍ.

علَيك بالفهرس

وأعادَ برهانُ الدّينِ كتابَ القابِسيّ إلى شَيخه، وقد فهمَه فهمًا أرشدَهُ، وأنارَ له الطّريقَ، وقالَ لشيخِه:

– اكتشفتُ أمرًا يا شيخِي، وأنا أنسخُ بيدِي كتابَ القابسي، وكِتابكَ «الهداية».

فقالَ له المرغياني باسمًا:

– وماذا كانَ اكتشافُكَ يا برهانَ الدّينِ؟

فقالَ لهُ برهانُ الدّين:

– اكتشفتُ أن نَسْخَ طالبِ العلمِ للكِتابِ بيدِه، يمنَحهُ قدرةً أكبرَ على فهمِ ما فيه، وحَفظِ مقُولاته ومَعلوماتِه، وأن اعتمادَ طالب العلمِ على كتابِ نسخَه غيرُه، يُقلّلُ مِن فهمِه لهُ، وقُدرَتِه على حفظِه.

فضحِكَ المِرغياني، وقالَ لبرهانِ الدّينِ:

– إلا في حالةٍ واحدةٍ يا برهانَ، إذا لَجَأ إليها طالبُ العلمِ فلنْ يكونَ بحاجةٍ إلى إضاعةِ وقتِه، في نسخِ كتابٍ يمكن أن ينْسَخَهُ له سِواه، أو يشترِي نسخةً منه من عندِ ورّاقٍ، من هؤلاءِ الورّاقين.

فقالَ له برهانُ الدّين:

– وما هذهِ الحالةُ يا شيخي؟

فقال لهُ المرغياني:

– لكلّ كِتابٍ مُحتوَى (فهرس) منَ الأبوابِ والفُصُولِ. أليسَ كذلكَ؟

فقال لهُ برهانٌ الدّين:

– بَلَى يا شَيخي.

فقال لهُ المرغياني:

– فابْدَأ في أيِّ كتابٍ منسوخٍ لأجلِكَ. بمعرفةِ هذهِ الأبوابِ، وتلكَ الفصولِ، في فهرسِ الكتابِ، ثم ابدأ في دراسَتِها فصلاً فصلاً، وتحصيلِها بابًا بابًا، ولَسَوْفَ يُغنيكَ هذانِ الأمرانِ عن نسخِكَ لأيِّ كتابٍ بيدِكَ، ما دُمتَ قادرًا على أن تَحْصُلَ على نسخةٍ منهُ، نسخَها غيرُكَ.

وضَحِكَ الشّيخُ المرغياني، ثمّ قالَ:

– ومن يدري يا برهانَ الدّين، قَد يأتي يومٌ تَجِد في نَفسِكَ رغبةً مُلِحّةً لأنْ تضعَ في التَّعلُّم والتّعليمِ كِتابًا، هو ثمرةُ خبرتِكَ في التَّعلُّمِ، على أيدي معلِّميك، وأنا لا أعرفُ في هذَا المجالِ، إلى زَماني، كتابًا آخَر في هذَا الفَنِّ، سِوَى كتابِ القابِسيّ القَيْرَوانيّ.

ثم صار عالمًا

في مدينةِ «خُوقند» عاشَ برهانُ الدّين عُمرًا. لعلّهُ بلغَ خمسينَ أو أربعينَ سنةً، يعيشُ صيفًا معتدلاً ممطرًا، بين عشرينَ وثلاثينَ درجةً مئويّة، وشتاءً عاصفًا بالثّلجِ والمطرِ، تتراوحُ درجةُ حرارتِه بين الصّفرِ، وعشرِ درجاتٍ تحتَ الصّفرِ. في مُناخٍ صحراويّ، قارسٍ (شديدٍ) البردِ في اللّيلِ. وكانتْ مدينةُ خُوقند (اندرين الآن)، في قلبِ وادٍ من السُّهوبِ (المراعي)، تُحيطُ بها عَن بعدٍ قريبٍ، جبالُ «تيانْ شَان» من الشّمالِ، والشّرقِ والجَنوبِ، وعلى ارتفاعاتٍ جبليّةٍ تتراوَحُ بين خمسمائةِ قَدَمٍ وألفيْ قدمٍ، تُكلّلُ هاماتِهَا (قممُها) ثلوجُ الشّتاءِ، ولا يَحولُ ذلكَ المُناخُ القاسِي، في صَيفِه وشتائِه، بين برهانَ الدّينِ وطلبِ العلمِ، على يدِ شيخِه المرغيانيّ، وشيوخِه الآخرين.

وحينَ علَتْ مكانةُ «برهانُ الدّين» في الفقهِ الحنفيّ، كانَ يجلسُ في المسجدِ الجامعِ بخوقند، مكانَ أستاذِه ليدرِّسَ كِتابَ «الهداية» لطُلّابِ الفقْهِ الحنفيّ، حينَ يُصابُ أستاذُه المرغيانيّ بمرضٍ من أمراضِ الشّتاءِ، أو حينَ تُقعِدُه آثارُ الشّيخوخةِ وكِبَرِ

السِّنّ. فقد كانَ «برهانُ الدّين» قد أحاطَ علمًا بالفقهِ الحنفيّ كلِّه، أصولِه، واختِلافِ الآراءِ في هذهِ الفُروعِ.

وكانَ أستاذُه المرغيانيّ قَد أعانَه على العَيشِ، فألحَقَه بمسجدٍ آخرَ من مساجدِ خُوقندَ، ليكونَ واعِظَهُ وإمامَهُ، فأخلَى برهانُ الدّين مَسكَنَهُ المخصَّصَ لطلاّبِ العلمِ، واستأجَرَ لنفسِه مَسْكَنًا خاصًا به، أكثرَ غرفًا، وأرحبَ اتّساعًا، يُطِلُّ على نهرِ آموداريا، وتزوّجَ فتاةً من بناتِ «خوقند». ولم تَنقطِعِ الرّسائلُ والزّياراتُ بَيْنَه وبين ذَويه في «زَرْنوج».

أعدُكَ يا سيدي

وذاتَ ليلةٍ، توجَّهَ «بُرهانُ الدّين» ليعودَ (يزور) شَيخَهُ المرغياني في مَرَضِه، فوجدَه أفضلَ حالاً. وفاجأ «المرغياني» برهانَ الدّين بقوله:

- متَى ستَضعُ في الفقهِ الحنفيِّ كتابًا، يحملُ اسمكَ، وتُدوِّنُ (تسجّلُ) فيه آراءَكَ؟

فقالَ له «بُرهانُ الدّين» بإخلاصٍ:

- في العلمِ، أيِّ علمٍ يا سيّدي، لا يجدُرُ بعالمٍ أن يؤلِّفَ كتابًا في علمٍ ما منَ العلومِ، إلاّ إذا كانَ سيَقولُ جديدًا فيه، منهجًا، وطَريقةَ عَرضٍ، وآراءً وأفكارًا. وأنا أجدُ في كِتابِكَ «الهداية» الغِنَى كُلَّهُ، عَن أيِّ كِتابٍ آخرَ، في الفِقهِ الحَنَفيِّ.

فقالَ لهُ «المرغياني»:

- حدَّثني طلاّبُ العِلمِ، الذينَ استمعُوا لكَ، في دروسِ الفقهِ، التي قُمتَ بعبئِها (مسئوليتَها) نيابةً عَنّي، أنّهُ لا مثيلَ لكَ كمحاضرٍ، ومناظرٍ، ومجادلٍ، ومُناقشٍ، ومُحاورٍ. وقد أشادُوا واحدًا بعدَ واحدٍ، بطريقتِكَ في التَّدريسِ والتّعليمِ، والإرشادِ إلى طرائقَ التّحصيلِ، فَهمًا وحِفظًا. فلماذا لا تَضعُ خبرَتَكَ هذهِ يا بُرهانَ الدّينِ في كِتابٍ، يكونُ مرشدًا لطلاّبِكَ، وهاديًا مِنْ بعدِكَ لمنْ سِواهُم من طلاّبِ العلمِ، في كلِّ العُصورِ والبُلدانِ؟

فُوجِئَ «برهانُ الدّين» بما قالَه شيخُه لهُ، وبسُؤالِه المُثيرِ، فأطرَقَ (أحْنَى رَأسَهُ) صامتًا، ومُفكّرًا. فقالَ لهُ المرغياني:

أتذكُرُ كِتابَ القابسيِّ القيرواني في التّعلُّمِ والتّعليمِ؟

فقالَ لهُ برهانُ الدّين:

- نَعَمْ يا سيّدي. أذكرُهُ وقد فَهِمتُه وحَفِظتُه. وبوُسْعِي الآنَ أن أُمليه من الذّاكرةِ، وأن أشرَحَه شَرحًا وافيًا.

فقالَ لهُ المرغياني:

- يا برهانَ الدّين، أليستْ لكَ مُلاحظاتٌ عليه؟ ألم تأخُذْ عليهِ نَواقِصَ في مَنْهَجِه، وفُصولِه، ومَقولاتِه، ومَعلُوماتِه؟

فقال له برهانُ الدّين:

- بلَى يا سيّدي.

فقالَ لهُ المرغياني:

- إذن. فتوكّلْ على اللّه يا بُرهانَ، وضَعْ في هذَا الموضوعِ كتابًا جَديدًا من تأليفكَ، تصُبُّ فيهِ صبًّا، رُؤيةً جَديدةً لَكَ، في التّعليمِ والتّعلُّمِ، وخبرَتَك في طرائِقِ التّحصيلِ والتّدريسِ. فمَدخَلُ العلمِ، أيُّ عِلمٍ، هُو أوّلاً، في كيفيةِ تَحصيلِكَ لهذا العِلمِ، فهمًا، وحِفظًا، واستذكارًا ومُراجعةً.

عِندَئذٍ لم يزِدْ برهانُ الدّين عَن قَولِه:

- أعِدُكَ بذلِكَ يا سَيّدي.

كتاب برهان الدّين

خِلالَ أُمسياتٍ عَديدة، دامَتْ شهرَيْنِ لاَ غيرَ، أنجزَ برهانُ الدّين كتابَهُ الخاصَّ في التّعلُّمِ والتَّعليمِ.

استَعرَضَ برهانُ الدّينِ في بدايةِ تأليفِهِ لِكتابِهِ، مَنهجَ الكِتابِ وفُصولَه، ووَضَعَها في مَقولاتٍ فِكريّةٍ مُحدّدةٍ، راحَ يُعبِّرُ عَنها فِكرةً فِكرةً، وفَصلاً بعدَ فصلٍ. مهتديًا بفهرسِهِ العامّ، وحينَ ختَمَهُ بحمدِ اللّه، كانَ الكِتابُ قَد استَوى في كُتَيِّبٍ مُكثَّفٍ (مركز) وتعبيرٍ أدبيٍّ واضحٍ وبَسيطٍ، لا تَشقُّ على قارئِه متابعتُه، ولا معرفةُ معاني كلماتِه وجُملِه، ولا تَتابُعُ أفكارِه، من المقدّماتِ إلى النّتائجِ.

وحَملَ «برهانُ الدّين» كِتابَه، وذَهبَ إلى شَيخِهِ المرغياني. كانَ كتابًا، في ثلاثٍ وستّينَ صَفحةً، وأعطَى برهانُ الدّينِ شَيخَه كَتابَه، قائلاً:

– عَفوًا يَا سَيّدي. فالكِتابُ قليلُ الصّفحات، وأرجو أن يَكونَ كَثيرَ المعارِفِ، غَزيرَ الفائدةِ، واضحَ الفهمِ، بَسيطَ التَّعبيرِ.

وقلَّبَ المرغياني كِتابَ بُرهانِ الدّين، ثمّ توقَّفَ عند فهرسِه، وقال:

اقْرأ لي يا برهانَ الدّين فُصولَ هذا الفهرس.

وراحَ برهانُ الدّين يَقرأُ عناوينَ فُصولِ كتابِه، قائلاً:

– خطبةُ الكتاب، فصولٌ في: ماهيةِ العلْمِ والفقهِ وفضلِه، النّيّةُ حالُ التّعلُّمِ، اختيارُ العلْمِ والأستاذِ والشّريكِ والثّباتُ في طلبِ العلمِ. تَعظيمُ العلْمِ وأهلِه. الجدُّ والمُواظَبَةُ والهِمّةُ. بدايةُ السَّبْقِ (الدّرس) وقدرُه وتَرتيبُه، التّوكُّل في طَلَبِ العلمِ، وقتُ التّحصيلِ للعلمِ، الشّفقةُ والنّصيحةُ لِطالبِ العلمِ، والاستفادةُ مِنَ العلمِ في كلِّ وقتٍ، والوَرعُ (التّقوى) في حالةِ التّعلُّم، وما يُورث الحفظَ وما يُورثُ النّسيانَ، وما يجلِبُ الرِّزقَ لِطالبه وما يَمنَعُه وما يُزيدُ في عُمرِهِ ما يُنقصُه.

عِندئذٍ التَفتَ المرغياني إلى برهانِ الدّين، وقالَ له باسمًا:

– أحسنتَ الاختيارَ لِفُصولِ كتابِك يا بُرهانَ الدّين. ويُعجبُني فيما سمعتُه منكَ من عناوين، مزْجُك بين طَلَبِ العلمِ وتقوى طالبِ العلمِ، طَلَبًا للإخلاصِ، والنّزاهةِ في طلبِ العلمِ، والغايةِ

منه، فَدَعْ لي هذا الكتاب، لأقرأهُ غدًا، وأنا جالِسٌ في الشَّمسِ، مُديرًا ظَهري إلى زُجاجِ النّافذَةِ.

وسَكَتَ المرغياني لحظةً، ثُمّ قال بحبّ لبرهانِ الدّين:

- باركَ اللّه فيكَ يا برهانَ الدّين، فلم تخيّب يومًا، حُسنَ ظنّي بكَ، منذ أنْ رأيتُكَ لأوّل مرّة قادمًا إليَّ من« زَرْنوج».

وراء النّافذة

في الصّباحِ، وَقتَ الضُّحَى، جلَس المرغياني الجِلْسةَ التي يُحِبُّها شتاءً، كُلَّما مَدّت الشّمسُ أشعتّها وحرارَتَها، عبرَ الزُّجاجِ المُغْلَق، اتّقاءً للبرد وللهواءِ، وكانتْ ثمّةَ مدْفَأةٌ يتوهّجُ ما بِها من جَمَراتِ الفَحْمِ، في جانبٍ بَعيدٍ منَ الغُرفةِ، يَقرأُ قراءةَ عالمٍ مدرَّب، على مَهل، كِتابَ برهانِ الدّينِ عنِ التعلُّمِ والتّعليم، عن حالِ طالبِ العلمِ، وأخلاقِه، وإخلاصه في التّعلُّمِ والتّحصيل، وعَن عناصرِ نَسقِ (نظام) التّعلُّم، بالتّأهُّبِ، والنّيّة، والهِمّة، والتّوكُّلِ، وعَن أدبِ النّفس بتعظيمِ العلمِ والعُلماءِ. وتجنُّبِ الذّميمِ منَ الأخلاقِ، وعَن ضرورةِ المُشاركة في طلبِ العلمِ بالمَطارحة، والمُناظرةِ، والمُذاكرة، والمُشاورةِ، والتّأمُّلِ المُوجَّه في دقائق

العلمِ، وعَن ضَرورةِ حَيَوية طالبِ العلمِ، بالفَهمِ، والتّكرارِ، وعَدَمِ الكسلِ، والاستمرارِ في طلبِ العلمِ.

وتوقَّفَ «المرغياني) عند آراءِ برهانِ الدّين بضرورة التّدرّجِ في طلبِ العلمِ، بالبدءِ من المعلومِ إلى المَجهولِ، ومِنَ المَحسوسِ إلى المَعقول، ومِنَ اليَسيرِ الفهمِ إلى الصَّعبِ الفهمِ،

وباتّباعِ أسلوبٍ مُعيّنٍ في المُراجَعة، والحِفظ، وبزيادَةِ القَدْرِ المَدرُوسِ زيادةً يَسيرةً في كُلِّ يومٍ، وبالرِّفقِ في التَّحصيلِ، دُونَ تَسرُّعٍ، وبِمُراجَعةِ تَحْصيلِ الأمسِ وما قَبلَه، إلى خمسةِ أيّامٍ سَبَقتْ، وبِتقسيمِ الاستِذكارِ إلى وَحْداتٍ وأجزاءٍ، ثُمّ ضمّها معًا، حِفظًا وفَهمًا.

وانْبَهَرَ المرغِياني بآراءِ برهان الدّين في الحِفظ والنِّسيان، فَمَا يُورثُ الحفظَ عِندَه، هوَ النّشاطُ العَقليّ لطالبِ العلم، والنّشاطُ الجَسَديّ لهُ، بتقليلِ الغذاء، وتَنظيفِ الأسنان، وشُرْبِ العَسَلِ، وتَجنُّبِ أمراضِ الحرّ والبرد، ومتاعبَ المَعِدَةِ والأمْعاء. وما يورثُ النِّسيانَ عندَه هوَ الكَسَلُ العَقليّ، والانفعالاتُ النّفسيّةُ، والفَسادُ الخُلقِيّ، وضُعْفُ صِحّةِ الجَسَدِ.

وشَعَرَ المرِغياني بوهَنِ (ضُعف) جَسَدِه، فتوقَّفَ عَن القِراءَة، وأغفَى (نامَ نومةً قصيرةً) في مَكانِه، إلى أن أيقَظَهُ صوتُ المؤذّنِ يؤذّنُ لصلاةِ الظُّهرِ.

أخلاق طالب العلم

فِي اللّيلِ، جاءَ «برهانُ الدّين» لزيارةِ شَيخِه المرِغياني، وكانَ يبدُو عليهِ القلقُ والتّوتُّرُ. حينَ رآه الميرغياني، وهو مضطجعٌ (راقد) في سَريرِه، ضِجْعَةَ الجالسِ والرّاقِدِ معًا، قالَ لبرهانِ الدّين:

- أراكَ قَلِقًا يا بُرهانَ الدين. وأظنُّ أنّ سَبَبَ قَلَقِك، هو شَوقُكَ إلى مَعرفةِ رَأيي في كتابِك.

فقال لهُ برهانُ الدّين:

- نَعَمْ يا سَيّدي.

فَقالَ لهُ المرِغياني:

- طِبْ نَفسًا يَا برهانَ الدّين. أعجَبَني كتابُكَ وراقَني، فهُوَ كِتابٌ بَديعٌ. قَرأتُهُ اليومَ في جَلسَتَيْن، عِندَ الضُّحَى، وعِندَ العَصرِ.

فقال لهُ برهانُ الدّين:

- يُسعدُني رَأيُكَ يا سيّدي.

فقالَ لهُ المرِغياني:

– كَيفَ تَرَى يا بُرهانَ الدّين السُّلوكَ الأخلاقيّ لطالبِ العلمِ في تَعامُله العِلميّ؟

فَقالَ لهُ برهانُ الدّين:

– أجَبْتُ عَن هذَا السُّؤالِ في فُصولِ كتابي يا سَيّدي. وأوجزُه الآنَ في غاياتٍ عَلى طالبِ العلمِ أن يُراعيهَا في تعامُله العِلميّ، مَعَ العُلماءِ، وطُلاّبِ العلمِ الذينَ سيُشارِكُهم في طلبِ العلمِ.

فَقال لهُ المرِغياني:

– هاتِ موجزَكَ يا برهانَ الدّين، فإنّي أسمَعُ.

قالَ برهانُ الدّين:

– عَلى طالبِ العلمِ يا سَيّدي، بَعدَ أن يُحسِنَ اختيارَ العلمِ الذي يُحبُّهُ، واختيارَ المُعلّمِ الذي يُؤثِرُه (يُفضلّه) واختيارَ شُركائه في طلبِ العلمِ، خاصّةً الذينَ يُذاكِرُ مَعَهم، عليهِ أن يُعظّمَ مُعلّمَهُ، ويحترِمَ شُركاءَه في طلبِ العلمِ، وعليهِ أن يُحسِنَ الظّنَّ بالنّاسِ عامّةً، وبِالمُعلّمِ والشُّركاءِ خاصّةً، وعليهِ أنْ يَحرِصَ عَلى الوَفاءِ

مَعَ شُركائه في طلبِ العلمِ، بِمعرفَةِ آدابِ المُشاركةِ والمُشَاورَةِ، والمُطارَحةِ والمُذاكَرةِ، والحِوارِ والمُناظَرةِ. وعليهِ أنْ يَعرِفَ أنّ الغايَةَ مِنَ المُناظَرةِ والمُحاوَرةِ، هي إظهارُ الحَقِّ، لا إفْحامُ الخَصمِ، وأنّ الحِوارَ يَكونُ بالإنصافِ لرأيِ الآخَرِ، والتّأنّي في إبداءِ الرَّأيِ، والتَّأمُّلِ فيما يقولُ، وفيما يَسمَعُ، وتَجَنُّبُ الغَضَبِ والسِّبابِ في المُناقَشةِ، والتَّعَصُّبِ للرَّأيِ. وعليهِ أن يبتَعِدَ عَن التَّمويهِ في حِوارِه، ومُخادعةِ مُناظِرِه، والتَّحايُلِ عليهِ. وكلُّها يا سيّدي غاياتٌ اجتِماعيّةٌ أخلاقيّةٌ.

آفة طُلاّب العلمِ

في تلكَ اللّيلةِ، طالَت أسئِلةُ الشَّيخِ المرغياني لبرهانِ الدّين، وكَثُرَتْ مُوجزاتُ بُرهان الدّينِ لآرائه في كِتابِه، خاصّةً عَن الحِفظِ والنِّسيانِ.

وفي تلكَ اللّيلةِ، قالَ المرِغياني لبرهان الدّين:

– غدًا إنْ شاءَ الله، سألتَقي بالعلماءِ في المسجدِ الجامعِ، لأُحدِّثَهم عَنْكَ، وهُمْ يَعرِفُونَكَ، وعَن كتابِكَ، وهُم لَم يعرِفُوهُ بَعد. ولَسوفَ أطلبُ مِنهم تَكليفَكَ بإعدادِ طُلاّبِ العلمِ الجُدُدِ، لحلَقاتِ

دُروسِهم، تُعلِّمُهم كَيفَ يَقرَؤُونَ كِتابًا، وكَيفَ يَفهَمونَه، وكَيف يَحفَظونَه، وكَيفَ يُذاكِرونَ، ويُراجِعونَ مُذاكَرَاتِهم، فآفَةُ تَحصيلِ العِلمِ، هي جَهلُ طُلاّبِ العِلمِ بطُرُقِ هذا التَّحصيل.

وسُعِدَ برهانُ الدّين بما قالَه لهُ شيخُه، وقَالَ لَه:

– أرجُو أن أكونَ عِندَ حُسنِ ظَنّكَ، وظَنِّ العُلماءِ بي.

مسئوليات برهان الدّين

وسَكَتَ برهانُ الدّين لحظةً، ثمّ قالَ لشَيخِه:

– لَم أَضَع لِكتابِي هَذا عُنوانًا. فَقدِ احتَرتُ حَقًّا في اختِيارِ عُنوانٍ لَهُ، ورجَوتُ أن تُشيرَ عَلَيَّ بعُنوانٍ دَقيق، يُعبِّرُ عَن مَوضوعِ هَذا الكتاب.

فَضَحِكَ المرغياني، وقالَ لبرهانِ الدّين:

– ذكَّرتَني بما نَسيتُ أنْ أذكُرَه لَكَ يا بُرهانَ الدّين. اجعلْ عُنوانَ كِتابِكَ هَذا، إذا رَضيتَ عنهُ، وقَبِلتَه: «تعليمُ المتعلِّمِ طَرِيقَ التَّعلُّمِ».

وصَارَ علَى بُرهانِ الدّين، أن يَحملَ عبءَ (مشقّةَ) مَسئوليات ثَلاث: أنْ يُدرِّسَ كتابَه ضُحَى كُلّ يومٍ لطُلّابِ العلمِ الجُدُد، وأنْ يُدرِّسَ كِتابَ «الهدايةِ» عَصرَ كُلِّ يومٍ لطُلّابِ حلقةِ الحنفِيّ، وأنْ يُصلِّيَ بالنّاسِ، في المسجدِ اتلذي يَعملُ بِه واعظًا وإمامًا، الصّلَواتِ الخَمْسِ.

في بيتِ الأمير

وذاتَ يَومٍ، صَحِبَ بُرهانُ الدّين شَيخَه المرغياني، للقاءِ أميرِ خُوقندَ. فلقدْ قرأَ الأميرُ كِتابَ «برهانِ الدّين» «تعليمُ المُتعلّم طَريقَ التّعلُّم»، وأُعجِبَ بِه، فَدعَا الشّيخَ المرغياني للقائِه، ورَجَا مِنه أنْ يَصحَبَ معَه ذَلِكَ العالِمَ اللاّمِعَ «برهانَ الدّينِ الزّرنُوجي».

وجَلَسَ المرغياني وبرهانُ الدّين معَ الأميرِ جلسةً خاصّةً، في شَرفةٍ بطابَقٍ عُلويّ بقصرِ الإمارةِ، يَأكُلونَ حَلْوَى، ويَشربونَ شايًا، ويتسلّوْنَ بالمُكسّرَاتِ مِنْ بُنْدقٍ، وجوْزٍ، ولوْزٍ، وكانَ الحَديثُ يَروحُ ويَجيءُ بَينَ الثّلاثَةِ، في شُئونٍ شتّى، مِن شُئونِ العلمِ والسِّياسةِ،

وحَياةِ النّاسِ في خُوقَندَ، وأحوالِ طُلّابِ العِلمِ في تُركِستَان الشّرقيّة (أوزبكستان الآن).

خُذ بيد ولدي

والتَفَتَ أميرُ خوقندَ إلى برهانِ الدّين، وقالَ له:

- الآنَ نَدخلُ في المَوضُوعِ الذي دَعَوتُكَ مِن أجلِهِ يَا بُرهانَ الدّين، بَعدَ أنْ اطمأنّ قَلبِي إليك.

فَقالَ له برهانُ الدّين:

- مُرنِي بِما تَشاءُ يَا سيّدي الأميرُ.

فَقالَ لهُ الأميرُ:

- إذا قَبلتَ أيّها العالمُ الجَليلُ، أن تكونَ مُؤدِّبًا (مُربِّيًا) ومعلِّمًا لولدِي الأكبَر، ووليِّ عَهدِي مِن بَعدِي، فسوفَ تجلبُ السُّرورَ إلى قَلبِي، وتُهدِي أهلَ خُوقند أعظمَ هَديةٍ، برعايتِك لابْنِي.

وهَمّ برهانُ الدّين بالكلامِ، معتذرًا بأنّهُ لاَ يَصلُح لتعليمِ الصِّبيانِ، وأنّ بِضاعَتَهُ مِنَ العلمِ هي في الفقهِ الحنفِيّ، لكنَّ الأميرَ قَطَعَ عليه طَريقَ القولِ بقولِه:

- لا تَعتَذِرْ يا برهانَ الدّين. فما أُريدُه مِنكَ لِولدِنا، هو أن تأخُذَ بيدِه، لتُعَلِّمَه طَريقَ تَحصيلِ العِلمِ، وكَيفَ يحفظُ ويفهَم، وكَيفَ لا ينسَى ولا يغفَل، وكيف يواظِبُ على تحصيلِ دُرُوسِ العِلمِ، دونَ أن يُجهِدَ أو يَمَلَّ ويَسْأم، حتّى يتعلّمَ كيفَ يحصِّلُ العِلمَ وَحدَهُ، دُونَ مُعلِّمٍ لَو دَعَا الأمرُ، ولْتَعْلَمْ يَا بُرهانَ الدّينِ أنّ وَلَدَنا يترَدّدُ عليه معلّمونَ مُقْتَدِرُون، في علومٍ بعينِها، أعلم أنّها تَلزَمُ لإعدادِ مَنْ يتعلّمُ لأنْ يَكونَ حاكِمًا لرعيّة، ووَلدِي أهلٌ لها ذَكاءً وخُلُقًا.

فقالَ المرغياني للأمير:

- اخترتَ أيّها الأميرُ الرّجُلَ الجَديرَ بهذهِ المهمّةِ، وهيَ مهمّةٌ يَسيرةٌ على برهانِ الدّين.

وعندئذٍ قالَ برهانُ الدّين للأمير:

- قبلتُ هذه المُهمّةَ يَا سَيّدي الأمير.

كيف أحفظ ولا أنسى؟

في أوّلِ لقاءٍ بينَ برهانِ الدّين، وابنِ أميرِ خوقند، وكانَ شابًا دُونَ السّادِسة عشرةَ من العُمرِ، قالَ برهانُ الدّين لابنِ الأمير:

- أخْبِرني يا بُنَيّ بالمُشكِلاَتِ التي تُواجِهُها في تَحصيلِ العِلمِ.

فقالَ لهُ ابنُ الأمير:

- أوّلُ مُشكلة، وأكبَرُها يا سَيّدي، هي في الحِفظِ لا في الفهمِ، وفي النّسيانِ لا في الكَسَلِ.

فقال له برهان الدّين:

- هذهِ مُشكلةٌ كُبرَى يا بُنيّ، ولَستَ وَحدَك الذي تُعاني مِنها، فكُلُّ طُلّابِ العِلمِ يُواجِهونَ هَذهِ المِحنَة. فاسْمَعْ مِنّي يَا بُنَيّ.

فقال لهُ ابنُ الأميرِ:

- إنّي لكَ، يا سَيّدِي العَالِمِ، سامعٌ ومُطيعٌ.

فَقالَ لهُ برهانُ الدّين:

- عَليكَ يا بُنَيَّ ألاّ تَحفَظَ مِنَ الكتُبِ، ما دامَ الفهمُ يَسيرًا عليْكَ، سِوى كتابٍ واحدٍ، كمرجعٍ، في هَذا العِلمِ، يذكرُه لَكَ أُستاذُك في هذا العِلمِ.

فقال له ابنُ الأمير:

- وما طريقَةُ الحِفْظِ التي لاَ أنْسَى مَعَها يا سَيّدي ومُعلِّمي؟

فقالَ لهُ برهانُ الدّين:

- عليكَ أن تَحفظَ وأنتَ تَنظُر إلى الكلماتِ المَكتوبةِ بعينَيْكَ، ولا تَعتَمدْ على الحِفظِ وأنْتَ تَسمَعُ، والتّرديدِ لما تَسمَعُه. وعَليكَ أنْ تُقَسِّمَ مَا تَحفَظُه جُزءًا جُزءًا، وبِقدرٍ مَعلوم في كلِّ يَومٍ. وعَليكَ ألاّ تَحفظَ إلاّ وأنتَ في حَالٍ مِن اليَقَظة تَكونُ مُستَعدًا فيها للحِفظِ، وعَليكَ ألاّ تَحفظَ إلاّ في وقتٍ مُناسبٍ لَكَ في الحِفظِ، مِن اللّيلِ أو النّهارِ، وعَليكَ ألاّ تَحفظَ أيَّ قَدرٍ مِن العلمِ إلاّ بعدَ فَهمهِ قَبلَ الحِفظ. وعَليكَ ألاّ تَحفَظَ إلاّ عِلمًا تُحبُّه، وتَختارُه، حَتّى تَكونَ رَاغبًا في حِفظِ هَذَا العِلمِ. وعَليكَ أن تَلتَزِمَ في غِذائِكَ بِتناوُلِ أطعمةٍ وأشربةٍ فيها سُكّرٌ وَفيرٌ، مثلُ العَسلِ، والعَصائرِ المُسَكَّرةِ،

حَتى تُساعِدَك الصِّحّةُ، ويُعينُكَ حُسنُ الغِذاءِ، على اليَقَظةِ والحِفظِ، والفَهمِ.

فَقَال لهُ ابنُ الأميرِ:

- وكيفَ أسترجعُ ما حفظتُه يا سَيّدي، حينَ أشاءُ، ولا أنساه.

فقال لهُ برهانُ الدّين:

- إذا وَاظبتَ في كُلِّ يومٍ عَلى أنْ تَستَرجِعَ ما حَفظتَه خِلال خَمسةِ أيّامٍ على الأكثرِ، فَسوفَ لا تَنْسَى ما حَفظتَه قَطّ، إلاّ إذا انقَطَعْتَ عَن دراسةِ هَذَا العلمِ. فالتَّركُ يُورثُ النّسيان، والنّسيانُ يورثُ ضَياعَ العلمِ. فخُذْ نفسَك في الحِفظِ والتّذكُّرِ لِما حَفِظتَ بالرِّفقِ، وبالتّجزيءِ، والتَّدَرُّجِ، وبالتّنظيمِ تبلغُ الغايةَ التي تَصبُو إليها.

وَدَامَتْ دروسُ برهانِ الدّين، المؤدِّبُ المربّي، لابنِ الأميرِ قُرابَةَ ستّةِ أشهر، يَلتَقيانِ كُلّ يومٍ في ساعةِ الضُّحَى، في دارِ الإمارةِ، ويَنفَصِلان عِنْدَ أذانِ الظُّهرِ، إلى لِقاءٍ آخَر، في يومٍ جَديدٍ.

مَدٌّ وجَزْر

في القرنِ الهجريِّ السّادس، الميلادى الثّاني عشرَ، عَاشَ «برهانُ الدّين الزّرنوجي». وكانَ قرنًا خاليًا مِن الأحداثِ الكُبْرى في العَالمِ الإسلاميّ، فكلُّ ما حَدَثَ في هَذا القرنِ، هُو أن دولاً إسلاميّةً قَد حلّت في السّيطرة، محلَّ دُوَلٍ إسلاميّةٍ سابقةٍ عَليها، بالقَهْرِ والغَلَبةِ. فَقَد انتزعَ الموحِّدونَ في المغربِ

الإسلاميّ والأندلُسِ الحُكمَ مِن المرابِطين. وحلَّ الأيُّوبيّونَ في مِصرَ والشّام والحِجازِ، محلَّ الفاطميّين، وذَهبَ السّلاجقةُ في فارسَ، وجاءَ بَدَلاً منهم الخُوارَزْمشاهيَّة. وترك الغَزْنَويّونَ أفغانستانَ وجَنوبَ فارسَ للغُوريّين. وانتَزَعَ «القُره خطاى» الوثنيونَ بلادَ ما وراءَ النّهرِ من المسلمينَ.

وفي إفريقيّةِ الشّرقيّة والغَربيّة، كسبَ المسلمونَ مَزيداً من الأراضِي الإفريقيّة. وراحَ الصّليبيّونَ يَضربُونَ في طَريقِهم، في الشّامِ، وشَمالِ العراقِ، دونَ أن يحصلُوا على ثَمرةٍ أو نَتيجةٍ، أو يَنالُوا استِقرارًا في مدينةٍ احتلّوها.

قرن المدارس والمدرّسين

وفي هذا القرنِ ظلَّ النّشاطُ العقليّ قَويًا عِندَ المُسلمينَ، وراحَ الأوربيّونَ، لأوّلِ مرّةٍ، يُنافسُونَ المسلمينَ في هذا النّشاطِ العقليّ، بفضلِ معارفِ المسلمينَ وأفكارِهم، التي تعرّفُوا عليها عَبْرَ جُزُرِ المتوسّط، والأندلُسِ، وخِلالَ حمَلاتهم العَسكريّة على الشّامِ، وشَمالِ العراق، وأثناءَ تِجارَاتِهم البَحريّة الغَاديةِ والرّائحة، مع الموانئ العربيّةِ، وبفضلِ حِرصِهِم على تَرجمةِ

الثّمراتِ العلميّةِ الكُبرى، التّطبيقيّة منها خاصّةً، إلى اللُّغةِ اللاّتينيّة، أوّلاً بأولٍ، وَلَقد رَفعتْ هذه الثّمراتُ العلميّةُ مِن هيبةِ المسلمينَ في أعيُنِ الأوروبيّينَ.

لكنَّ الآثارَ العَقليّة للمسلمينَ في هذا القَرنِ، كانَتْ أقَلَّ شأنًا من آثارِهم في القُرونِ انماضيةِ. فَقَد صارَ العلماءُ في المَشرقِ الإسلاميّ، حَتى مَن صارَ منهم أئمةً للعلمِ في هَذا القَرنِ، عِيالاً وعالةً على المسلمينَ السَّابقين. فَقَد أصابَ أهلُ الجَدَلِ من علماءِ الكَلامِ، والرّجعيّونَ من أهلِ الجُمودِ، عُقولَ النّاسِ بالعُقْمِ والضُّعفِ.

وفي الوقتِ نَفسه، كانت تحدثُ في المغربِ الإسلاميّ عامّةً، وفي الأندلُسِ خاصّةً، نهضةٌ ثقافيّةٌ عَظيمةٌ، ارتفعَتْ فوقَ إنتاجِ المشارقةِ العلميّ، أولئك الذينَ تكبّلُهم (تُقيّدُهم) التّقاليدُ، ويُعجزُهم الجدلُ والجُمودُ عَنِ السَّعيِ في العلمِ إلى جَديدٍ. ففي الأندلُسِ خاصّةً، حدثَتْ نهضةٌ طبّيّةٌ وفلسَفيّةٌ عظيمةٌ، كانَ من أعلامِها: ابنُ طُفَيل، وابنُ رُشد، وابنُ زُهْر. صارَ للشّريفِ الإدريسيّ خاصّةً، الفَضلُ في نشْرِ الثّقافةِ الإسلاميّةِ في أوروبا، عبرَ الأندلُسِ وصقليّةِ.

وفي هَذا القرنِ الخاملِ والخامدِ في المشرقِ الإسلاميّ، عاشَ برهانُ الدّين الزّرنوجيّ، أبُو التّربيةِ والتّعليمِ، بينَ عُلماءَ مُدرّسينَ، وعلماءَ شُرّاحًا ومُعلّقينَ عَلى آثارِ السّابقينَ، ولكنّه استطاعَ أن يُؤسِّسَ طَريقةً في التّربيةِ والتّعليمِ، كانَت منهجًا وحَصادًا وتَقنينًا لآثارِ السّابقينَ، في التّربيةِ والتّعليمِ، مِن الفلاسفةِ المسلمينَ، والمعلّمينَ، وفي عصرٍ بدأَتْ توجَدُ فيه، مدارسُ للتّعليمِ، إلى جانِبِ المساجِدِ الجامعةِ الكُبرى، في مِصر، والشّامِ، والمغربِ، والأندلُسِ.

* * *

وَلا يعرفُ أحدٌ من المؤرّخينَ، وكُتّابِ مَوسوعاتِ الأعلامِ، في الشّرقِ أو الغربِ، تاريخَ ميلادٍ لبرهانِ الدّينِ الزّرنوجيّ، فكلُّ ما أشارَ إليهِ المؤرّخُونَ والمَوسوعيّونَ هو أنّ برهانَ الدّينِ قَد ودّعَ الدُّنيا في العامِ الهجريّ السادسِ والتّسعينَ بعدَ الخمسمائة، الميلاديّ التّاسعِ والتّسعينَ بعدَ مائةٍ وألف، وأنّهُ قَدْ ألّف كتابَه «تعليمُ المتعلّمِ طَريقَ التّعلُّمِ» قَبلَ أن يُودّعَ الدُّنيا بِثلاثِ سَنَوات، وَلَمْ يذكُرِ المؤرّخونَ وَلاَ الموسوعيُّونَ أينَ وُورِيَ (دُفِنَ) جَسَدُ برهانُ الدّينِ الزّرنوجِيّ، في أيِّ بُقعةٍ

مِن بِقاعِ تِركستانِ الشّرقيّةِ، التي نَعرفُها الآنَ باسمِ أوزبكِستان.

* * *

في الشّرقِ، اشتهرَ كِتابُ برهانُ الدّينِ الزّرنُوجيّ «تَعليمُ المتعلِّمِ طَريقَ التَّعلُّمِ» ونافسَ هَذا الكِتابُ في القُرونِ التّاليةِ، كِتابًا آخَرَ في التّربيةِ والتّعليمِ سابقًا عليه، هوَ كِتابُ القابسيِّ القيرُواني، وكِتابًا آخَر جاءَ بَعدَه، في التّربيةِ والتّعليمِ، هو كتابُ «في أحكامِ المعلّمينَ والمتعلِّمينَ» لمحمّد بن أبي زَيْدٍ. ويعدّ الأستاذُ الدّكتورُ إبراهيم سلامةَ، كتابَيْ القابسيّ والزّرنُوجيّ، أهمَّ كتابيْن في التّربيةِ، في الثّقافةِ الإسلاميّةِ العربيّةِ القديمة.

وفي الشّرقِ اختَلفَتْ عناوينُ كتاب «برهان الدّين الزّرنُوجيّ»، على أيدي النّاسخينَ، قَبلَ أن يَطُلَّ عصرُ الطّباعةِ، فَهوَ تارةً يَحملُ عُنوانَ: «تَعليمُ المُتعلّمينَ عَلى الكَمَالِ» وتارةً يحملُ عنوانَ: «تَعليمُ المتعلّم طَريقَ التَّعلُّم». وَقد شَرحَ إبراهيمُ ابنَ اسماعيل كتابَ الزّرنوجيّ، بهذا العنوانِ الأخيرِ، في رسالةٍ سمّاها:

«الرِّسالةُ المُسمّاة بتعليمِ المُتعلِّمِ طَريقَ التّعليمِ» وشَرحَه من قَبلِه ومن بَعدِه كَثيرون.

وفي الشَّرقِ «طُبع كتابُ برهانُ الدّين»، في تونسَ، ومصرَ، ومرشد آباد وقازَان، والآستانَة، وأكثرُ هذهِ الطَّبعاتِ عددًا كان في مِصر، منذُ أواخرِ القرنِ التّاسعِ عشرَ الميلاديّ، إلى اليومِ.

وفي الغربِ تُرجمَ كتابُ برهانُ الدّينِ الزّرنُوجيّ إلى اللُّغةِ اللاّتينيّة. ثُمّ توالتْ طَبَعاتُه وتَرجَماتُه، مُنذُ أوائلِ القرنِ الثّامنِ عشرَ الميلاديّ، إلى اللُّغَتينِ الألمانيّةِ والإنجليزيةِ.

* * *

وَفي الشّرقِ والغَربِ كَتَبَ كَثيرونَ من المحدَثينَ عَن نظرةِ برهانِ الدّينِ الزّرنوجيّ في التّربيةِ والتّعليمِ، بَينَهُم مُستَشرِقونَ من ألمانيا، وفرَنْسا، وأنجلترا، وبَينَهُم عُلماءُ تربيةٍ عربٍ محدثُونَ، وفي طَليعةِ هذهِ الكتاباتِ العربيّةِ عَن الزّرنوجيّ كتابُ «التَّعَلُّم عندَ برهان الإسلام الزّرنوجيّ» لأُستاذٍ من أساتذةِ التّربيةِ بكُلّيّةِ التّربيةِ بجامعةِ عينِ شمسٍ، هو الدّكتورُ «سيد أحمد عُثمان». وهُو الكتابُ الوَحيدُ، فيما نعلمُ، عَن التَّعلُّمِ عندَ

الزّرنوجيّ. مثلما كانَ كِتابُ الدّكتور أحمد فؤاد الأهواني «التّربيةُ في الإسلامِ أو التّعليمُ في رأيِ القابسيّ» هُوَ الكتابُ الوَحيدُ.

* * *

عاشَ برهانُ الدّينِ الزّرنُوجيّ، في عصرٍ شاعَ فيه الاهتمامُ بإنشاءِ المدارسِ، وتَأسيسِ المَعاهدِ الدينيّة، وانتشَرَتْ فيه مجّانيةُ التّعليمِ بهذهِ المدارسِ، وبالمساجدِ الجامعةِ في عواصمِ العالمِ الإسلاميّ، ومُدُنه الكُبرى.

ولطُلاّبِ العلمِ، والمُعلّمينَ، ألّفَ الزّرنوجيّ كِتابَه في التّربيةِ والتّعليمِ مُحتذيًا كتابَ سابقه «القابسيّ القَيروانيّ» في التّربيةِ والتّعليمِ، فَوَضَعَ بكتابه أُسُسَ التّربيةِ للحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ، في العُصورِ الوُسطَى، وتأثّر الغَربيّونَ بثَمراتِ هذا الكِتابِ في التّربيةِ، إثرَ تَرجَمَته إلى اللاّتينيّةِ، ثم بَعد تَرجَمَته إلى الألمانيّةِ والإنجليزيّةِ، ولَم يهتَمّ أحدٌ بَعدُ من الدّارسينَ العربِ بدراسةِ هَذَا التّأثيرِ، في المَناهجِ الغَربيّةِ، في التّربيةِ الحَديثة، لمفكّرٍ تَربويٍّ عَربيٍّ مُسلمٍ، عَرَفَته الحضارةُ العربيّةُ الإسلاميّةُ قبلَ ثمانمائةِ عامٍ.

المطبعة الحديثة للفنون المطبعية IMAG Imprimerie Moderne des Arts Graphiques

31

الزرنوجى

عالم عربى مسلم، عاش فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى، على ضفاف نهر «سيحون». وكان من آباء التربية والتعليم فى العصور الوسطى وألف كتابا شهيرا فى علم التربية، ليعلم به طلاب العلم طريقة فى التحصيل العلمى والمراجعة. وترجم كتابه إلى اللغات اللاتينية والإنجليزية والألمانية. وأثرت آراؤه التربوية فى عصره وبعد عصره. إنها قصة تثير الفخار يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1 - إبن النفيس	13 - إبن ماجد	25 -إبن الرزاز
2 - إبن الهيثم	14 - القزويني	26 - تقي الدين
3 - البيروني	15 - إبن يونس	27 - الرازي
4 - جابر بن حيان	16 - الخازن	28 - الكندي
5 - إبن البيطار	17 - الجاحظ	29 - الخليل
6 - إبن بطوطة	18 - إبن خلدون	30 - إبن حمزة
7 - إبن سينا	19 - الزهراوى	31 - الزرنوجي
8 - الفارابي	20 - الأنطاكي	32 -يوحنا بن ماسوية
9 - الخوارزمي	21 - إبن العوام	33 - ياقوت الحموي
10 - الإدريسي	22 - الطوسي	34 - ثابت بن قرة
11 - الدميري	23 - الكاشي	35 - ابن ملكا
12 - إبن رشد	24 - الوزان	36 - ابن الشاطر

424

© Editions Anep
ISBN: 9947-21-276-9
Dépôt légal: 1696-2006